مسرواية توفيق الحكيم

« بنك القلق »

بقلم نبيل فرج

استغرقت رحلة توفيق الحكيم في الخلق الفني حتى هذه الاوفات اكثر من اربعين سنة . لم يفت من غضده مصاعب المرحلة التاريخية التي عاصرها . وعلى الرغم من تقدمه في السن ، فلا تزال طاقة الابداع لديه على نفس المستوى . ولا تزال موهبته الادبية تتدفق بالانتاج ، وتتألق بالقيم الفنية والفكرية التي لا يسع المرء حيالها الا ان يغض الطرف مؤقتا عن الخلاف البين الذي تثيره ، ويتساءل في حيرة وزهو: من أي نبع ثري يستقي هذا الكاتب الكبير فنه ؟!

والى جانب ذلك يعد توفيق الحكيم من اكثر الادباء العرب المعاصرين ارتيادا للافاق الجديدة في الفن . وليس من الغلو ان اقرر ان كل عمل فني يصدر له بمثابة حقل تجارب ، على المسرحيين ان يفيدوا من بعض نواحيه في تحقيق الدور القيادي الذي يقع على المسرح عبء ادائه .

الا ان اهم هذه الارتيادات ما لازمه واطلق عليه «المسرح الذهني». وهو مسرح فكري ، يطرح قضايا فلسفية تأثر فيها الحكيم بروح الشرق، ترمز كل شخصية فيه الى معنى من المعاني المجردة : « اهل الكهف » (١٩٢٣) ، « شهرزاد » (١٩٣٤) ، « بجماليون » (١٩٤٢) ، قدمها للقراءة في بادىء الامر . ثم قبلت الاخراج بعد ذلك على المنصة ، وتبين انها نماذج تحتذى للمسرح الحقيقي النابض بحركة الافكار .

وحاول في مسرحية « الصفقة » (١٩٥٦) ان يوحد لغة المسرح ، على نحو ما هي في الاداب الاوروبية ، بتجريب لغة ثالثة قريبا مما يتخاطب به المثقفون . لغة تحافظ على سلامة الفصحى . وعند تسكين اواخر كلماتها تنطق بالعامية . وبقلب حرف القاف الى جيم او همزة تنطق بلهجة الاقليم الذي ينتمي اليه الفرد في الريف او الحضر . وبعد تسع سنوات ، وفي مسرحية « الورطة » (١٩٦٥) ، تسامح شيئا في قواعد الفصحى ، واختزل اسماء الاشارة والاسماء الموصولة ، من أجل التبسيط والاقتراب من العامية التي اخذ اصحابها الحقيقيون يرتفعون، بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، الى مستوى اجتماعي وثقافي لائق بانسانيتهم.

كما ان توفيق الحكيم ، في مسرحية « رحلة الى الغد » (١٩٥٨) ، كان اول من استجاب للانتصارات العلمية الباهرة باطلاق الصواريخ الى القمر ، وأن كان مضمون المسرحية يتناقض مع هذه الانتصارات في الحاضر والمستقبل في ظل سيادة النظم الاشتراكية على ثلث العالم ، لان ثمة موروثات قديمة غير علمية عند الحكيم تجفله من نتائجها، وتحول بينه وبين الوقوف على قمة الوعي بعصره .

وفي غضون النهضة الفنية الكبرى التي شهدتها بلادنا فيما بعد سنة ١٩٦١ ، تاركة كافة الزهور تتفتح من اليمين واليسار وما بين بين ، نظر الحكيم الى اتجاه صمويل بيكيت واوجين يونسكو ، واستلهم من فنوننا الشعبية المصرية القديمة مسرحية « يا طالع الشجرة » . خرج عن الواقعية تماما ، وتحرر من الاسس التقليدية في الفن ، وخلص — على زعمه — من المعنى والمنطق . ولكن انى لفن القول ان يتحرر من الدلالة ؟! واقتصر في معارضته لمأساة « الكترا » ، في « الطعام لكل فم » (١٩٦٣) ، على احدى الحيل الفنية في الشكل ، وامتحن بداخله فكرة العدالة والاخلاق على محك احتياجات العصر .

وغير ذلك كثير مما جعله يتبوأ اعلى مكانة في الحياة الادبية ، وجعل لاعماله مكانا اثيرا ، تستهل بنصوصه المواسم المسرحية ، وتفتتح بها الفرق الجديدة في الاقاليم .

وقد كانت اخر هذه الارتيادات التي طلع بها على الوسط الادبي في القاهرة مسرواية « بنك القلق » (١) التي عقد فيها مزاوجة بين المسرح ، الذي يقف فيه كالقمة الشماء ، والرواية التي ابدع فيها « عودة الروح » (١٩٣٣) ، و « الرباط المقدس » (١٩٤٤) .

والمسرواية اطار جديد في الادب العربي ، لتوفيق الحكيم فضل المبادرة بممارسته واضافته الى رصيدنا الادبي . يتقيد هذا الاطار باصول الشكلين المقررين للرواية والمسرحية من فصول ومناظر متساوية العدد ، واسلوب الاداء ، والخصائص الفنية الاخرى .

يصف الحكيم في الفصول الشخصيات من الداخل والخارج ، في حاضرها وماضيها . ويمهد بالاحداث الروائية المليئة بذكى الالتفاتات . حتى اذا بلغ الموضوع حدا يتحتم فيه على الشخصيات ان تلتقي لقاء مباشرا ، في لحظات حاضرة ، تغيرت الاداة الفنية في يد الكاتب ، بما يناسب الموقف ويجسده ، وتحول الى الحوار المركز .

اي ان استخدام السرد أو الحوار يجيء عن ضرورة يحتمها التصميم الذي رسمه الكاتب لهذا العمل الفني الذي يدرج تحت المسرح اكثر من الرواية .

لذلك فليس صحيحا ما ذهب اليه الدكتور عبد القادر القط دون ان يشرح وجهة نظره ويعللها من ان « كل منهما تؤدي وظيفة مستقلة عن الاخرى دون ان يتم بينهما ترابط حقيقي » (روز اليوسف ، اول اغسطس ١٩٦٦) .

ان الترابط قائم هنا على التسلسل المنطقي والتكامل والتآزر ، بما يحفظ للاحداث صيرورتها واطرادها الدائم ، ويصون لكل شكل تقاليده ، فلا يقص على السنة الشخصيات في المسرحية احداثا قديمة ترد كالخبر مكانها الرواية ، ولا يضمن سرده وتحليله في الرواية حوارا موضعه المسرح .

وجلي انه من تحصيل الحاصل ان يؤكد الناقد ، بعد ذلك ، ان هذا العمل الفني نسيج واحد ، يؤدي وظيفة واحدة لا تنفصم او تنجزأ في السرد والحوار ، ولا يصلح الا على هذا النحو الخاص الذي اختاره له توفيق الحكيم ، واستنزل فيه افكاره ومعانيه .

والمسرواية احدى الاعمال الفنية القليلة التي تدور وقائعها بعد الثورة . اراد بها توفيق الحكيم ان ينتقد كثيرا من العيوب التي لا تزال تضرب اطنابها في الحياة الجديدة . يتناولها على ضوء ما يعتنقه من ان القلق « داء عصرنا الحديث الذي يشكو منه اكثر الناس » ، فيدفع بنمطين من الاشخاص هما ادهم سليمان ، العقل المفكر ، وشعبان جاد عوضين العاطفة الجامحة ، لفتح بنك للقلق ، يتعاملان فيه مع هذا المرض الذي يقدر الحكيم سيادته على الحياة .

واذا كان هذا المرض سائدا في كثير من بلدان اوروبا الغربية واميركا ، والدول العربية المتخلفة ، فليس سائدا عندنا ونحن نثبت دعائم المجتمع الاشتراكي الجديد .

وحتى لو كانت طبيعة المرحلة الآخذة في النمو التي نجتازها تسبب مثل هذا القلق ، وهو ما لا يستشف عند الحكيم ، فليس من صالحنا

---

(١) الملحق الاسبوعي للجريدة « الاهرام » . الاعداد الصادرة بتاريخ ٣ ، ١٠ ، ١٧ ، ٢٤ يونيه — ١ ، ٨ ، ١٥ ، ٢٢ يوليو ١٩٦٦ .

ان نقيم عليه بناء مسرحيا ، ونعلنه بهذا الشكل المتفزع في مواطن عديدة من المسرواية ، توسع حجمه الطبيعي .

***

يفتتح توفيق الحكيم عمله الفني بشخصية ادهم وهي تمر بحالة من حالات الفراغ والصعلكة . وادهم هذا شاب مفلس يعيش في احلامه الخاصة . دائم السؤال عما يرى دائم الجواب . يقف بدافع الفضول امام ملهى يعرض ضمن العابه نمرة تلفت النظر : ناطحة سحاب من البشر ، يتسلقون اكتاف بعض ، وعلى قمتهم حسناء . يفكر ادهم ان هذا البنيان المتماسك يمكن ان يهدم في طرفة عين بأقل عطسة ، بأقل خلل ، و « ينقلب الموقف البطولي الى مهزلة » .

هل يرمز الحكيم بهذا المشهد الى الحياة الحديثة المعرضة كذلك ان يأتيها الدمار فجأة ؟!

ويتطرق التفكير بادهم الى ان كل واحد ، سواء من اللاعبين اولئك او المشاهدين له قصة فلفه . ثم يتابع مسيره على كورنيش النيل ، يطالع بعين الفد في تلاقي العشاق بخلواته « أزمة مساكن ومواصلات ومواد استهلاكية » .

وعلى احد مقاعده الحجرية جلس منهك اتقوى ، يتنهد تنهدة ايقظت النائم الى جواره . « حملق كل منهما في صاحبه . وهنا انطلقت من كل منهما صيحة في نفس الوقت » .

ومن هذا اللقاء الذي وقع بالمصادفة يبدأ المنظر الاول . انهما زميلان قديمان في كلية الحقوق ، فصلا منها بعلل اقرب الى التهريج . ثم فرقت بينهما الحياة ، فاشتغل ادهم مخبرا صحفيا ثم فصل ، لانه كان يؤلف الاخبار من عقله . واعتقل بسبب ارائه اليسارية المتطرفة . وتزوج شعبان اربع ثم تركهن جميعا ، وعمل في وظائف مختلفة . «واخيرا عشت منفردا كما ترى ، التقط اللقمة حيث اجدها» ، ولا يكف عن البحث عن المتعة .

عندئذ يقترح عليه ادهم ان يفتحا بنكا ، يتم التعامل فيه بالقلق — هذه العملة الرابحة التي لا يسلم منها انسان . يعالجان العملاء المرضى منه باجر كبير ، ويعالجهما العملاء باجر اقل ، والفرق هو مكسبهما . فتلقى الفكرة في نفسه هوى .

ويشروعهما في تنفيذ الخطة ، في الفصل الثاني ، يكون السرد الروائي اوفق في التنقل بهما في شوارع المدينة في الليل ، يحددان مواضع لصق الاعلانات عن المشروع . ثم يتوجهان ، في باكر الصباح ، الى بيت ادهم ، ليستيقظا على اذان العصر ، ويعدا نسخا من صيغة الاعلان ، الصقها شعبان — بعد ان اوغل الليل — على اكشاك السجائر ودكاكينها ، باعتبار ان المدخنين اكثر الناس قلقا .

وعادا من جديد الى شقة ادهم ، حيث يدور المنظر الثاني ، وهما ينظران تشريف الزبائن .

ولسوء الحظ يكون اول طارق صاحب البيت . جاء يطالب بايجار اربعة اشهر متأخرة ، فيفاجأ بأن الشقة تحولت الى « بنك » ، وانه ، اذ يوضع موضع المريض والمعالج في آن بحسبة تخلصهما من الدين ، قد سقط في شرك نصب .

بعد ذلك يدخل صحفي يدعى متولي سعد ، يتخذه الحكيم وسيلة للتعريض بفئة الصحفيين المرتزقة . جاء هذا الصحفي الى ادهم زميله السابق ، لكي يعيد له كتابة تحقيق صحفي عن « الاتحاد الاشتراكي في كفر عنبة » ، قرية ادهم التي لم تطأها قدماه منذ فارقها في طفولته .

ولا يعدو الفصل الثالث ان يصور لنا الانظار الذي ينتهي في المنظر الثالث بوجيه ثري يدعى منير عاطف . رجل من هذه الفئة الاقطاعية التي ضربت مصالحها في الصميم بقانون الاصلاح الزراعي . حددت ملكيته للارض من خمسمائة فدان الى مائة فدان . يركب الموجة العالية ويتظاهر بانه مع الثورة . اما في داخله فينقم عليها ويعمل ضدها في الخفاء .

وقد وجد هذا الثري « بنك القلق » فرصة مؤاتية لتحقيق اغراضه بجمع الساخطين عن طريقه ، فاشترك فيه ، وقام بتمويله بالنفقات على نطاق واسع ، دون ان يدرك ادهم او شعبان انهما وقعا في حبائل من يقوم بنشاط مريب . اعطاهما نقودا ، وخصص لهما

مربا نابتا « خمسة وعشرين جنيها في الشهر » ، واجر باسمهما شقة في شارع شبرا خالصة الايجار لمدة سنة ، يدور المنظر الرابع وما يتلوه من مناظر في غرفة ادهم بها .

ونتعرف في هذا المنظر على بنت شقيق منير ، فتاة جميلة ندعى مرفت ، حقيقة الامر انها مطلق ، وعلى خالتها العانس ، وحقيقة الامر انها غير عانس ، فاطمة هانم التي يتخذ منها شعبان وسيلة الى مرفت التي خلبت لبه من النظرة الاولى .

ويمثل نعلفه بها في حديثه الدائم عنها مع صديقه ، في الفصل الخامس . وفي المنظر التالي يتوجهان من جديد الى المكتب ، فتطرق مرفت الباب بعد قليل ، لكي تستفسر عن « بنك القلق » هذا الذي علقت يافطته على الباب .

فرصة ذهبية تتاح لشعبان عليه ان يستغلها الى اخر المدى . اعتبرها مريضة وسألها عما يقلقها في هذا العالم ، فوجد ان قلقها ناشيء من عدم وجود عطر « اسكاندال دي سوار » في السوق ، رغم ظهوره في باريس من مدة ، وحصول احدى صديقاتها عليه .

هذا هو القلق الذي نعانيه هذه الطبقة الفارقة في النعمة والترف ، في فترة تحول المجتمع الاقطاعي الى الاشتراكية .

الا ان الزبائن الذين اتوا بعد ذلك يشكون القلق ، يمثلون نماذج عدة من المجتمع ، قدمهم الحكيم لينتقد بهم مظاهر حياتنا المعاصرة .

الزبون الاول اب ، رسب ابنه في الثانوية لانه « وقع في حب فتاة .. بنت الجيران » ، وحار الاب فيه : « ما يقلقني هو انه يعيدها ويعيد معها نفس المأساة » .

ويختلف الزبون الثاني اختلافا تاما . فليس ما يقلقه امرا خاصا بل هو عام : « هذه الرجعية التي حولي ، هذا المجتمع الرجعي الذي انتفس فيه .. » ، مطمحه ان يقضي على التخلف ويفسح الطريق « امام كل فكر تحرري تقدمي .. » .

ويقف الزبون الثالث على النقيض منه في تيرمه . ما يقلقه « هذا الالحاد المتفشي في البلد » . ويرى ان « نار الله الموقدة يجب أن تصب صبا على مجتمع بهذا الفجور » .

هذان الزبونان الساخطان سخطا سياسيا يتحولان الى الوجيه الثري في الغرفة المجاورة التي يصغي منها لما يدور .

ولا شك ان بقاء الوجيه بعيدا عن المسرح ابهت شخصيته جدا

ولم نحمل على كرهه .

اما الزبون الرابع فمصدر قلقه تحمسه البالغ للكرة . هذه اللعبة التي بلغ الاهتمام بها بين الكبار والصغار حدا مخيفا لا يؤيده الحكيم. والمضحك ان هوس الزبون بنادي الزمالك يعدي ادهم بدوره ، فيدافع عن هذا النادي بحرارة .

والحق ان تفييرا متغلغلا قد دب في نفس ادهم الذي بدا يائسا ، جعله في النهاية يعتقد انه مسئول عن الامة كلها .

ويرجع قلق الزبون الخامس الى ما يمتلىء به العصر من صواريخ واضطهادات وثورات .

والزبون السادس عامل في مصنع نسيج بشبرا . مثال للامانة . له زميل « طبعه الاهمال والكلفتة » . وقف محيرا قلقا بين السكوت عنه ، فيصاب الانتاج بالضرر ، وتبليغ المسئولين فيتهم بالوشاية بزميل.

ويسفه الزبون السابع الاقتصار على الافضاء بالقلق في مكان ضيق ، مثل هذه الغرفة . ويريد لو ارتفعت المعارضة والتعبير الحر المطلق الى اوسع نطاق . صيد جديد يطلب الوجيه تحويله اليه .

ومع الزبونة الثامنة نطرق مشكلة الغلاء والتطلعات الطبقية . ام عروسة تملك لشقة بنتها وجهازها الفا وخمسمائة جنيه . ومع هذا يكاد رأسها ينفجر من القلق لانه سيكون اقل من جهاز بنات خالتها وعمتها .

والغريب ان بنتها وخطيبها الحاصل على الدكتوراه في الاقتصاد، وله مؤلفات في الاشتراكية ، لا يختلفان عنها في سيطرة التقاليد القديمة عليهما ، وتمسكهما بالمظهر .

ويشكو الزبون التاسع من اولاده الثلاثة : الاصغر فاسد الخلق ، بلااهتمامات جادة . والاخران احدهما يساري والثاني يميني ،يتراشقان كل يوم امام الاب بعبارات واتهامات خطيرة . كما انه يعاني من انسحاق في المدنية الحديثة المليئة باشارات المرور والقيود والسرعة .

فهل يتضمن نعي الحكيم على المدنية الحديثة ، بهذا الشكل الحاد ، دعوة الى رفضها والعودة الى القرى الهادئة ، مثلما نجد لدى الرومانسيين الذين صدمت احاسيسهم واحلامهم بعصر العلوم والمخترعات ؟!

هذه المدنية هي التي توفر مزيدا من الراحة للانسان .

المهم ان الوجيه يطلب الاب ليحضر هذين الاخوين .

وخلال محاولات شعبان ان يوثق صلته بفاطمة هانم ، لكي يبلغ مرفت ، تدعوه فاطمة الى بيت خال في المعادي . وهناك يفاجأ بأن ام مرفت التي قيل انها متوفاة لا تزال على قيد الحياة ، وانها مصابة بالجنون . اصيبت به عندما اكتشفت العلاقة الجنسية بين زوجها واختها فاطمة ، فاحرقت زوجها بالنار ، والتصقت به ، فدفعها عنه لتعيش فاقدة العقل .

صورة بشعة لمآسي هذا العصر ، عند هذه الطبقة المنحلة ، تعمق الاحساس بالقلق .

في هذا البيت ، وفي غرفة المكتب المجاورة ، اكتشف شعبان سر هذا الوجيه المخادع . عثر في احد ادراج المكتب على ما يشير الى انه يمتلك اشرطة تسجل التذمر ، الذي واجهناه في المناظر السابقة،يتعامل بها مع « جهات اخرى » من اعداء بلاده واعداء الثورة .

وقد تم هذا الاكتشاف في نفس الوقت الذي كان الوجيه يزمع فيه مد نشاط بنك القلق الى الاقاليم عن طريق جهاز صغير يسجل قلق الناس في القرى وضيقهم بالحياة .

اذ ذاك يتفق الصديقان على ابلاغ البوليس : « فقط سنقول لهم ان يضعوا منير عاطف تحت المراقبة ونطلب من جهات الامن اخلاء طرفنا من اي مسئولية جنائية » .

وبهذه الطريقة ينجوان من الورطة التي سقطا فيها ، واتاحت لنا ـ خلال عشرة فصول وعشرة مناظر ـ ان نطلع على كثير من افكار الحكيم في الحياة الجديدة ، بما تنطوي عليه من نقد اجتماعي واخلاقي.

نبيل فرج

بحار...

سفني لم تبرح بعد المرفأ
مذ كانت سفني والبحر عواصف لا تهدأ
أشرعتي بليت وحبالي كادت أن تتهرأ

***

عبثا قدمت القربان لالهة البحر
وسدى صليت بكيت نحرت النحر
الملاحون على سفني عشش في اعراقهم الضعف
وهنت ايديهم ألفوا الراحة عرفوا الخوف
ما عاد يحرك احلامهم هذا الافق الرجراج
ما عاد يثير حماسهم همس الامواج
سئموا مضغ سؤالهم المتعفن
ترديد متى نبحر
وتراب الشاطىء ضاجع أعينهم حتى ارمدها
حتى ما عادت تبصر
الملاحون على سفني فقدوا النطق وفقدوا السمع
ونسوا كيف تدار الدفة
كيف يشد القلع
عبثا أهتف في البحارة .. اوقظهم أصرخ
لا يجدى الصوت
مات البحارة في سفني
قبل لقاء الموت

***

الجزر المنشودة في اجفان الغيب
والبحر اليها أنواء .. لجة رعب
كيف سأمضي ؟ ما عادت تحرس خطوى
عين الرب
والقدر الاسود ما غض الاجفان
ما زال السيف على كف القرصان
يحلم بالفتح وبالاسلاب
وبأن يغرس في لحمي الانياب

***

سفني لم تبرح بعد المرفأ
مذ كانت سفني والبحر عواصف لا تهدأ
أشرعتي بليت وحبالي كادت أن تتهرأ
والرحلة يا ويلي قدر محتوم .. فمتى أبدأ ؟

غزة

عبد الكريم السبعاوي